حقوق الطبع محفوظة

رقم الإيداع : ٢٠١٢/١٤٧٦٤

مكتبة

فياض للطباعة والنشر والتوزيع

المنصورة : شارع عبد الهادى - عزبة عقل

فاكس : ٠٥٠/٢٢٦٧٣٩٨

ت : ٠٥٠/٢٣٧٥٩٤٣

مقدمة التحقيق

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا رسول الله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

- **أما بعد:**

فإن الإسلام هو دين الهدى والنور، الذي لا فوز للبشرية ولا أمن لها ولا سعادة، في الدنيا والآخرة، إلا عندما تهتدي بهداه، وتستضيء بنوره، مخلصة في عبوديتها لله الخالق، تأتمر بأمره، وتتبع منهجه، نابذة كل منهج من المناهج الأرضية المخالفة له.

فإن أي أمة من الأمم في أي بقعة من الأرض، وفي أي زمن من الأزمان، إذا دانت بهذا الدين، واعتصمت بحبل الله المتين، واتبعت رسوله الأمين، بصدق وعلم ويقين، بما أنزله الله في كتابه المبين، وسنة رسوله الرؤوف بأمته الرحيم، إن أي أمة من الأمم تتمسك بذلك، لا بد أن تكون أسعد الأمم، وأكثرها أمنًا واستقرارًا، تعيش في رغد من العيش، وتحيا حياة عزٍّ وسؤدد، تقود ولا تُقَاد، وتأمر ولا تُؤْمَر، وتَنهَى ولا تُنهى، تحب الخير للناس كلهم، وتهديهم إليه بجد ونشاط، وتكره لهم ما تكره لنفسها من الشر، بعزم وقوة، ولو اقتضى ذلك منها أن تقدم من أجل تحقيقه، المال والولد والنفس، لأنها بذلك ترضي ربها الذي لا غاية لها في الحياة سوى رضاه.

وإن أي أمة من الأمم في أي بقعة من الأرض، وفي أي زمن من الأزمان، رفضت هذا الدين، وبعدت عن هديه، وحاربته وحاربت الدعاة إليه، متبعة هواها، عاصية ربها، هاجرة كتابه، خارجة على هدي رسوله ﷺ، إن أي أمة فعلت ذلك، لجديرة بأن تكون أكثر الأمم شقاء وخوفًا واضطرابًا وضنكًا، في كل شأن من شؤون حياتها، حتى لو بدت في ظاهر أمرها غنية بالأموال، كثيرة بالرجال، قوية بالمرافق والصناعات الثقال، فإن السعادة لا يجلبها منصب ولا مال، والأمن لا يحصل بسلاح ولا رجال، والطمأنينة لا يأتي بها أي سبب من الأسباب المادية، إذا خلت من الإيمان واتباع الرسول ﷺ.

وقد دلَّ على ذلك – أي سعادة المهتدين بهدي الله، وشقاوة الرافضين لمنهج الله – الكتاب والسنة وواقع الأمم الذي سجله التاريخ في كل الأحقاب، قال تعالى عن نبيه نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠-١٢].

فقد رتَّب على استغفارهم ربهم الذي أمرهم به، إمداد الله لهم بالأموال والبنين، ومنحهم الجنات والبساتين والأنهار، وهذا من ثمرات طاعة الله في الدنيا، ويشبه ذلك قول الله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: ٢، ٣].

ومن الآيات الدَّالة على أن الأمة المهتدية بهدي الله، يكرمها الله تعالى بالسعادة والخير والبركات في الدنيا، فتحيا حياة الأمن والعيش الرغيد، قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وإذا رأيت أمة من أمم الأرض محادة لله ورسوله، وقد أغدق الله عليها من رزقه من السماء والأرض، وظهرت بصفة المسيطر المتعالي، فاعلم أن ذلك ليس بركات عليها ولا تكريما من الله لها، وإنما هو محنة واستدراج لها، لتنال عقابها الأليم في نهاية المطاف، كما قال تعالى في الأمم التي كفرت بأنعم الله قبل بعث رسولنا محمد ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٢-٤٥].

ومن أصرح الآيات وأجمعها لسعادة المهتدين بهدي الله وطيب حياتهم في الدنيا والآخرة، قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

والحياة الطيبة ليست هي الحياة التي تتوافر فيها أنواع المتع المادية من مأكل ومشرب ومركب وملبس ومنكح، وصناعة وزراعة واختراعات فحسب، وإنما هي الحياة الآمنة التي تطمئن فيها القلوب، ويأمن فيها الناس على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، ينتشر فيها العدل، ويختفي فيها الظلم أو يقل، ويقود الناسَ فيها الأكفياء الصالحون إلى ما يرضي الله تعالى، ومتاع الدنيا المادي المباح جزء من الحياة الطيبة.

ومن الآيات التي جمعت بين إثبات السعادة لمن اتبع هدى الله في الدنيا والآخرة،

وإثبات الشقاء والضنك والخسران لمن بَعُدَ عن هدى الله وحاربه، قول الله ﷻ: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ﴾ [طه: ١٢٣-١٢٦].

وأما السنة: فقد دلَّت على أن الله تعالى ينزل ألوانًا من الشقاء، على الأمم التي تحارب منهج الله وتصد عن هداه: شقاء الجهل وشقاء انتهاك الأعراض، وشقاء ارتكاب ما يفسد العقول، وإذا فسدت العقول وانتهكت الأعراض، وفشا الجهل، فسدت الحياة كلها! وأي حياة تلك التي تحيا بها أمة هذا شأنها إلا حياة الضنك والضيق التي بينها القرآن؟

روى أنس ﷺ، قال: لأحدثنكم حديثا لا يحدثكم أحدٌ بعدي، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من أشراط الساعة: أن يقل العلم، ويظهر الجهل، ويظهر الزنا، وتكثر النساء، ويقل الرجال، حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد**». [البخاري: ١/ ٢٨].

وفي حديث أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ، قال: «**يتقارب الزمان، ويلقى الشح، ويكثر الهرج**» قالوا: وما الهرج؟ قال: «**القتل القتل**» [البخاري ٨/ ٨٩].

وفي حديث أبي موسى الأشعري ﷺ، قال: قال النبي ﷺ: «**إن بين يدي الساعة لأياما، ينزل فيها الجهل، ويرفع فيها العلم، ويكثر فيها الهرج**» والهرج: القتل. [البخاري: ٨/ ٨٩].

أي إن آخر الزمان يخالف أوله، بمعنى أن العصور الأولى كانت عصور نور وهدى، انتشر فيها العلم وثبت العمل الصالح، وأمن الناس على أموالهم وأعراضهم ودمائهم، لأنهم كانوا ملتزمين بهدى الله، يتعلمون الكتاب والسنة، ويعملون بما تعلموه فيهما ويطبقون ذلك اعتقادًا وقولًا وعملًا.

ولهذا أثنى رسول الله ﷺ على تلك القرون بحسب سبقها الزمني، لسبقها العملي، كما في حديث عمران بن حصين ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**».

قال عمران: لا أدري أذكر النبي ﷺ بعد قرنين أو ثلاثة - قال النبي ﷺ: «**إن بعدكم قوما يخونون ولا يؤتمنون، ويشهدون ولا يستشهدون، وينذرون ولا يفون، ويظهر فيهم السمن**» [البخاري: ٣/ ١٥١، ٤/ ١٨٩].

وفي حديث عبد الله بن مسعود ﷺ، قال: سئل النبي ﷺ أي الناس خيرٌ؟ قال: «**قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قومٌ تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته...**» [البخاري: ٧/ ٢٢٤].

وسبب هذا التفضيل، تلك التزكية التي زكى بها رسول الله ﷺ أصحابه بالوحي الذي كان ينزل عليه، علماً وعملاً، وكذا تزكية أصحابه بعده للتابعين، ثم تزكية التابعين لأتباعهم...

كما قال تعالى: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٥١].

وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢].

أما الواقع التاريخي، فإن الذي يتتبع فيه حياة الأمم سيجده شاهد صدق على أن الأمة المهتدية بهدى الله، هي التي تحوز قصب السبق في العزة والتمكين والسعادة والطمأنينة في هذه الحياة، وأن الأمة الرافضة لهدى الله البعيدة عن اتباع منهجه، هي التي تمنى بحياة الذل والشقاء والاضطراب والخوف والقلق، مهما أوتيت من ثراء وقوة ومن ألوان المتع المادية، ومهما شيدت من قصور، ومدت من جسور، وشقت من طرق، وأعلت من أهرامات، تجد فيها السادة المتجبرين، والعبيد الأذلاء المستضعفين، والظلمة الباطشين المستأثرين. والمظلومين المحرومين، لا ينصر فيها القوي – بالعدل- ضعيفًا، ولا يدفع فيها القادر عن الخائف مخوفًا، كما تجد فيها الفواحش المنكرة، والأمراض الفتاكة المنتشرة، وتجد فيها الجهل بأصول الإيمان وفروعه، وبذلك يعبد أفرادها وجماعاتها أهواءهم، ويعتدون على الناس فلا يردهم عن عدوانهم إلا القوة الرادعة لهم.

وهذا ما نشاهده في هذا القرن الذي نعيش فيه: القرن الذي تَطْرَب لذكره أسماع، وتخشع لعظمته قلوب، القرن الذي بُنِيَتْ فيه ناطحات السحاب، وعُبِّدَت فيه الطرق البرية الواسعات، حتى أصبح ساكن أقصى الأرض في الشرق، يسافر بسيارته إلى أقصاها في الغرب، وصنعت فيه الطائرات التي تقطع في ساعات المسافات الهائلة ما بين المشرق والمغرب، وامتلأت البحار والمحيطات بالسفن الضخمة، المدنية والحربية والغواصات، وأصبحت بعض كواكب السماء، للمسافرين محطات، وقد وطئت أقدام الإنسان على وجه القمر الذي كانت تشبه به الغيد الجميلات! وهكذا ما من شيء محسوس في هذا الكون إلا كان هدفا لتفكير المفكرين، ومحلًّا لبحث الباحثين، ليكتشفوا فوائده، ويغوصوا في أعماق أسراره، ويخضعوه للاستفادة منه مدنيًّا وعسكريًّا.

ولكن الحياة مع ذلك كله، لا زالت حياة شقاء ونكد، تنتشر فيها الفوضى الحسية والمعنوية، ويعم كثيرًا من سكان الأرض الخوفُ والجوعُ والفقرُ والمرضُ، فلا تجد شعبًا ولا دولة – صغرت أم كبرت – آمنة من اعتداء شعب ودولة أخرى، تعد للاعتداء عليها العدة، وتتربص بها الدوائر، ولا تجد شعبًا ولا دولة يأمن فيها الناس من الظلم والجور

والإجرام، بل إنك لتجد الجرائم تتصاعد كلما تقدم الناس في الاكتشافات العلمية والصناعات القوية، كما تجد من يموتون جوعا، في كثير من المعمورة، وبجانبهم من يموتون من الشبع والتخمة، وتجد العرايا من الملبس والبساط والغطاء، لا يجدون ما يستر عوراتهم، ولا ما يفترشونه تحت جنوبهم، و ما يتغطون به من الحر والقُرِّ، وبجانبهم من يؤثثون المنتزهات المؤقتة – فضلًا عن المساكن الدائمة – بأجود أنواع الأثاث، وقد امتلأت خزائنهم بالملابس الغالية، وافترشوا الزرابي والنمارق.

وتجد من يدَّعي مناصرة حقوق الإنسان والديمقراطية، وهو يفتك بالإنسان قتلًا وتشريدًا، ويربي الكلاب والقرود، ويقدم لها ما تشتهيه أنفسها من مأكل ومشرب وملبس ومسكن ورخاء، وتكبت أي صوت يرتفع مطالبا بالعدل والمساواة، إذا لم يكن ذلك الصوت مؤيدًا لمدعي مناصرة حقوق الإنسان والديمقراطية زورًا وبهتانًا.

إن هذا العصر الذي توجد فيه هذه الكوارث وغيرها، لمن أعظم شواهد الحق على أن الأمة التي تَبْعُد عن منهج الله وهداه، خليقة بالشقاء والخوف والقلق والاضطراب والدمار، مهما أوتيت من متاع الدنيا الزائل، وأن التربية الإسلامية على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، هي التي تجلب للأمة السعادة، وتجنبها من الويلات والضنك والمحن، وتبدلها بذلك الحياة الطيبة المستقرة، فما أحوجنا إلى تربية إيمانية صادقة تغسل قلوبنا من حب الدنيا وتأخذ بأيدينا إلى طاعة الله وسعادة الدارين.

إن تربية الفرد على العلم النافع، وهو الهدى الذي أنزله الله تعالى على رسوله محمد ﷺ، لتسعد به البشرية في الدنيا والآخرة، العلم الذي أنزله خالق الإنسان لهداية الإنسان، وجعله نهجاً له شاملاً لحياته كلها، وبعث به رسولاً هو أفضل الرسل وخاتم الأنبياء، وجعله قدوة حسنة يعلم الناس وحي ربه، ويهديهم برسالته، ويزكيهم بدينه.

إن التربية بهذا العلم كفيلة بجعل الإنسان ذي الفطرة السليمة، يستقيم على صراط الله، ينفع نفسه وينفع الناس ولا يضرهم ، ومما لا شك فيه أن تربية المجتمع على أن يحب بعضُ أفراده بعضاً في الله سبحانه وتعالى، لا لغرض مادي، من مال أو جاه أو منصب، ويصل بعضهم بعضًا من أجل الله تعالى، ويقوم كل واحد بحقوق إخوانه التي تحقق الأخوة الإسلامية، من صنع طعام ودعوة إليه، وإجابة دعوة، وإعانة محتاج وضعيف، وإفشاء سلام، وطلاقة وجه، وطيب كلمة، وتواضع، وقبول حق، وعفو وصفح، وسماحة ودفع سيئة بحسنة، وإيثار وبعد عن شح وحسن ظن بدلا من سوئه، ونصر مظلوم، وستر سيئة، وتعليم جاهل ورفق في معاملته، وإحسان إلى جار، وحب للطاعات وبغض للفواحش، وأداء كل فرد ما يجب عليه أداؤه بدون مماطلة، ونصح كل مسلم لكل مسلم.

إن تربية المجتمع على هذه المعاني، لخليقة بتحقيق الأخوة الإسلامية التي تجعله مترابطًا

متراصًّا متعاونًا آمنًا سعيدًا.

فإذا أضيف إلى ذلك تربية هذا المجتمع على البعد عن كل ما يوهي أواصر الأخوة الإسلامية ويكدر صفوها، من ظلم وحسد، واحتقار، وسخرية، وغيبة، ونميمة، وهَجْر وقطيعة، وترك ما يثير الشك والظنون السيئة، أو يؤدي إلى ضرر إلى الآخرين، كالإشارة بالسلاح وإظهاره لترويع الآمنين، وكتناجي اثنين دون الثالث، وترك منافسة المسلم أخاه المسلم على حطام الدنيا، وبخاصة ما شَرَع فيه من المباحات، كالبيع والشراء والخطبة، وترك الغش والكذب والخيانة ونحو ذلك.

إن تربية المجتمع على الابتعاد عن هذه الأمور وغيرها مما يضعف الأخوة الإسلامية، لحقيق بنشر الأمن والسلام والسعادة والاطمئنان في المجتمع الذي تحققت فيه كل أسباب المحبة، وانتفت عنه كل أسباب البغضاء.

وإن مجتمعاً يتحقق فيه الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين. الولاء الذي من أهم مظاهره: حب الله ورسوله والمؤمنين، وتقديم ما يحبه الله ورسوله على ما يحبه غير الله ورسوله، ومن مظاهره تحقيق كل معاني الأخوة الإسلامية، ومنع ما يناقضها كما مضى، ومن مظاهره القيام بقاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ليستقيم المجتمع على الجادة ويسلك الصراط المستقيم.

لذلك ينبغي علينا أن نهتم بالتربية الإيمانية الصادقة التي تنقل الإنسان من ذل عبودية الهوى والدنيا و الدينار والدرهم إلى عز عبودية الله جل في علاه وبين أيدينا كتاب ماتع يساعد الإنسان على هذه التربية وعلى تزكية نفسه و الترقي في مراتب العبودية للعلامة ابن الجوزي ألا وهو كتاب «**منهاج القاصدين ومفيد الصادقين**» الذي لا غنى عنه للعلماء والدعاة وطلبة العلم وكل سائر إلى الله تعالى فهو خلاصة وعصارة كتاب التزكية الأول إحياء علوم الدين للإمام الغزالي ، يناقش الكتاب أعمال القلوب وما يتعلق بها من عادات وعبادات ومهلكات ومنجيات ، كما يعتبر هذا الكتاب منهجًا تربويًّا ميسرًا للسائرين إلى الله ﷻ، ولقد صفى المصنف رحمه الله كتاب «إحياء علوم الدين» مما فيه من شطط وأحاديث موضوعة وأخذ ما فيه من كنوز وزاد عليها ما يسره الله تعالى له فجزاه الله خيرًا على ما قدم ورحمه الله رحمة واسعة وسائر علماء المسلمين .

وكتبه
أبو عبد الرحمن
عادل شوشة
مصر . المنصورة

عملي في الكتاب

١ـ حرصت على ضبط نص الكتاب.

٢ ـ تخريج الآيات القرآنية.

٣ـ تخريج الأحاديث النبوية والحكم عليها بما تستحقه صحة وضعفًا ومقارنة الألفاظ التي أوردها المؤلف رحمه الله بالألفاظ الواردة في الصحاح والسنن والمسانيد والمعاجم وتبيين الفروق إن وجدت وتعمدت عدم الإسهاب في الحواشي والتخريج ـ إلا في بعض المواطن التي رأيت أنها تحتاج إلى ترجيح وتوضيح ـ كي لا أخرج عن مقصود الكتاب.

٤ـ بالنسبة للآثار التي أوردها المصنف فخرجت منها ما يتعلق بالأحكام وحكمت عليها بما تستحقه صحة وضعفًا ـ أما الآثار الوعظية فخرجت منها ما تيسر وتعمدت عدم الحكم على أسانيدها لأن الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها ومن أصرح العبارات التي تدل على ذلك النهج الحديثي : الباب الذي عقده الخطيب البغدادي في كتابه «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع»[1] بعنوان : «ما لا يفتقر كتْبُه إلى إسناد». ومما جاء فيه قول الخطيب : «وأما أخبار الصالحين، وحكايات الزهاد والمتعبدين، ومواعظ البلغاء، وحكم الأدباء فالأسانيد زينة لها، وليست شرطا في تأديتها»، ثم أسند الخطيب إلى يوسف الرازي أنه قال : «إسناد الحكمة وُجودُها». وأسند عن ابن المبارك أنه سئل : «نجد المواعظ في الكتب ، فننظر فيها ؟ قال: لا بأس ، وإن وَجدتَ على الحائط موعظة فانظر فيها تتعِظ . قيل له فالفقه ؟ قال : لا يستقيم إلا بسماع» .

٥ـ علَّقت على المواطن التي تحتاج إلى تعليق وتوضيح بطريقة مختصرة.

٦ـ كتبت ترجمة موجزة لمؤلف الكتاب رحمه الله تعالى رحمة واسعة وسائر علماء المسلمين .

وأسأل الله جلَّ في علاه أن ينفعنا بهذا الكتاب الطيب المبارك وأن يرحم مؤلفه رحمة واسعة وسائر علماء المسلمين وأن يجزل المثوبة لمؤلفه ومحققه وناشره وقارئه إنه سميع مجيب . وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وكتبه
أبو عبد الرحمن
عادل شوشة
مصر ـ المنصورة

(١) الجامع (٢/ ٢١٣-٢١٥).

ترجمة مختصرة للإمام ابن الجوزي رحمه الله تعالى

٥٠٨هـ-٥٩٧هـ

- **اسمه ونسبه :**

هو جمال الدين أبو الفرج بن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله بن جعفر الجوزي ،قيل بأن نسبه ينتهي إلى أبي بكر الصديق .

- **ولادته ونشأته :**

ولد في بغداد في زقاق (درب حبيب)، واختلف في تاريخ ولادته بين (٥٠٨ و٥١٢هـ)، توفي أبوه وله من العمر ثلاث سنوات فرعته أمه وعمته وكان أهله تجارًا بالنحاس؛ وهذا يفسر ما يوجد في بعض سماعاته القديمة من لقب (ابن الجوزي الصفار)، وفي سنة (٥١٦ هـ) حملته عمته إلى مسجد خاله المحدث اللغوي الفقيه أبي الفضل محمد بن ناصر البغدادي المتوفي سنة (٥٥٠ هـ)، فاعتنى به عناية كبيرة وهو أول من علمه ، حفظ القرآن في هذه المرحلة وسمع الحديث فسمع مسند الإمام أحمد بن حنبل ، وجامع الترمذي ، وصحيحي البخاري ومسلم ، وتعلم اللغة والأدب وبرع في الوعظ ونظر في جل الفنون الموجودة في عصره ، ودرس على يد ثلة من علماء عصره ، وكان شاعرًا نحريرًا، وأكثر رحمه الله من التصنيف النافع في جل العلوم ومصنفاته المشهورة خير شاهد على ذلك.

- **وفاته :**

وتوفي ابن الجوزي ليلة الجمعة الثاني عشر من رمضان، بين العشاءين سنة سبع وتسعين وخمسمائة بعد أن مرض خمسة أيام ودفن في باب الحرب وكان يوم وفاته مشهودًا فقد ازدحم الناس لتشييع جنازته إلى درجة غلق الأسواق رحمه الله تعالى .

مقدمة المؤلف

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

الحمد لله مُنَبِّه الراقدين في غفلاتهم بمزعجات الإيقاظ، ومنزه التائبين من هفواتهم بملاطفات الوعاظ، ومُحدِّث العارفين في خلواتهم لا بالكلمات والألفاظ، ومحذر الزاهدين شَوْبَ شهواتهم حتى قذفوا على الظلماء يسير اللِّماظ، وغضوا عن غض المُشتهى أبصار المنى، واستوثقوا من اللحاظ، وقاموا إلى محاربة الهوى قيام الليث العبوس الحرب المغتاظ وحفظوا ما استحفظوا فَحُفِظوا، وإنما الحفظ للحفاظ.

أحمده حمدا كثيرًا فائت العدد، دائم الإلظاظ، وأصلي وأسلم على نبيه محمد الذي أعجز الفصحاء بما جاء به، فنسي قُسٌّ يوم عكاظ، وعلى آله وأصحابه أهل اليقين والتقى والاستيقاظ، وعلى أزواجه المبرآت من قول كل جعظري جواظ، صلاة أتقي بها يوم البعث حر لظى وشواظ نار وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ.

● **أما بعد:**

فإني رأيتك أيها المريد الصادق، الحازم العازم، قد وطنت نفسك على التخلي عن فضول الدنيا الشاغلة، وصمَّمت على الانقطاع إلى الآخرة علما منك أن مخالطة الخلق توجب التخليط، وإهمال المحاسبة للنفس أصل التفريط، وأن العمر إن لم يستدرك أدركه الفوت، وأن مراحل الأنفاس تسرع بالراكب إلى منزل الموت.

فنظرت، أيَّ أنيس من الكتب تستصحبه في خلوتك؟ وتستنطقه في حال صمتك؟ فإذا أنت تؤثر كتاب «**إحياء علوم الدين**»، وتعلم انفراده عن جنسه، ونفاسته في نفسه، فأخبرتك أن العلم مستند العمل، والمستند ينبغي أن يكون وثيقًا.

وفي كتاب «**الإحياء**» آفات لا يعلمها إلا العلماء، وأقلها الأحاديث الباطلة الموضوعة، والموقوفة، وقد جعلها مرفوعة، وإنما نقلها كما اقتراها، لا أنه افتراها. فلا ينبغي التعبد بحديث موضوع، ولا اغترار بلفظ مصنوع.

وكيف أرتضي لك أن تصلي صلوات الأيام ولياليها التي حكاها عن الرسول ﷺ وسطرها، وليس فيها كلمة قالها رسول الله ﷺ ولا ذكرها؟

وكيف أوثر أن يطرق سمعك من كلام المتصوفة، الذي جمعه، وندب إلى العمل به ما لا حاصل له، ولا عند الشريعة منه خبر؟ وكأنه شريعة ابتداها القوم، مثل الكلام في الفناء والبقاء، والأمر بشدة الجوع، والتقلل الخارج عن المعهود، والخروج إلى السياحة لا في

حاجة، ودخول الفلاة بغير زاد إلى غير ذلك مما قد كشفت عن عُواره في كتابي المسمى بـ «تلبيس إبليس».

فقلتَ لي: قد أوحشتني من هذا الكتاب بعد أنسي. فقلت: إنما أردت لك ما أردت لنفسي، وسأكتبه لك في كتاب لا يخل بفوائده، ويخلو عن مفاسده، أعتمد فيه من المنقول الأصح والأشهر، ومن المعنى الأثبت والأجود، وأحذف ما يصلح حذفه، وأزيد ما يصلح أن يزاد، ولا أطيل بما لا طائل فيه شحا عليك وعلى أمثالك، أن يتشاغلوا بفاسد، ويحملوا في مفاوز المخاطرة المتاع الكاسد، وقد جاء في الأخبار الصحيحة: «**الدين النصيحة**»[1].

فصل
في المحذوف من كتاب الإحياء

وربما رأيتني أُقصِّر في بعض الأبواب والفصول، وأحذف كثيرًا من الأخبار والآثار، فلا تظنن ذلك مني سهوًا، بل عمدًا؛ لأني لم أترك ذلك إلا لآفة في المتروك، فربما كانت الأحاديث لا تثبت، والآثار لا تصح، وربما قلت فائدتها، وربما تكون قد سبقت، فاعرف ذلك.

فصل
في تصنيف كتاب بأغلاط الإحياء

ولما خفت أن تتوق إلى ذلك الكتاب لمكان ألفك له، أفردت في كتاب ذكر عيون عيوبه، وأوردت هنالك بعض زلاته، لتعلم علة نهيي، وتكتفي عن ثمده بِنهْيي وإنما لم أذكر أغلاطه ها هنا لئلا يتكدر قلب قد شرعنا في تصفيته، أو يتأذى بالتخليط سقيم قد رأينا أول عافيته.

فصل
في ذكر السبب الباعث على حذف أكثر الأسانيد

وقد كنت أوثر أن لا أذكر منقولا إلا بإسناده، غير أني رأيت الإطالة سببًا للملل، فحذفت أكثر الأسانيد، ولم أر حذف الكل؛ لأن الإسناد أقوى للأسناد.

فصل
في بيان أهمية العلم لإصلاح النفس والتحذير من أهل الأهواء

وإذ قد صح عزمك على العزلة لاستيفاء حق الحق من النفس، والأخذ على يدها، فليكن وكيلك عليها العلم، وكن باحثًا عن دفائن هواها لعلك تسلم، واحذر سبيل أحد رجلين: عالم عرف الجدال في الفقه، فاقتنع برئاسته، أو نال القضاء فسعى في حفظ منزلته، أو زخرف المواعظ فضيق أعين شبكته. أو زاهد يتقلب برأيه الفاسد في جهلته، ويتقرب

(١) البخاري تعليقًا في كتاب الإيمان، ومسلم (٥٥) من طريق سهيل عن عطاء بن يزيد عن تميم الداري به مرفوعًا.

بتقبيل يده واعتاد بركته، ويعمل بهواه دون شرع الله وسنته، فهذان عادلان عن منهج الصواب، مقتنعان بقشور الأعمال عن خالص اللباب، خادعان للمبتدئين بلامع السراب، وطريقهما بمعزل عن سنن السلف الصالح، الذي هو جادة الاستقامة، ولقم السلامة، وسأدرج لك في هذا الكتاب – إن شاء الله – من أخبارهم، ما يدلك على آثارهم.

وكتابنا هذا يحتاج إليه المنتهي، كما يفتقر إليه المبتدي؛ لأن فيه أسرار العبادات، والتحذير من آفات المعاملات، وقد أتيتك به على ترتيب كتاب الإحياء، لعلمي بإيثارك ذلك الترتيب، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

وسميت كتابي هذا: «**منهاج القاصدين ومفيد الصادقين**»، وأسأل الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا به، ومن قرأه، أو سمعه، أو نظر فيه، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأن يختم لنا بخير، ويوفقنا لما يرضيه من القول والعمل والنية، وأن يسامحنا في تقصيرنا وتفريطنا، ولا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، ولا إلى أحد من خلقه، فإنه حسبنا ونعم الوكيل.

باب بيان وضع الكتاب

● **هذا الكتاب مقسوم أربعة أرباع:**

الأول: ربع العبادات، **والثاني:** ربع العادات، **والثالث:** ربع المهلكات، **والرابع:** ربع المنجيات.

فأما ربع العبادات، فيشتمل على عشرة كتب:

١- كتاب العلم. ٢- كتاب قواعد العقائد. ٣- كتاب أسرار الطهارة. ٤- كتاب أسرار الصلاة. ٥- كتاب أسرار الزكاة. ٦- كتاب أسرار الصوم. ٧- كتاب أسرار الحج. ٨- كتاب تلاوة القرآن. ٩- كتاب الأذكار والدعوات. ١٠- كتاب الأوراد في الأوقات.

وأما ربع العادات، فيشتمل على عشرة كتب:

١- كتاب آداب الأكل. ٢- كتاب آداب النكاح. ٣- كتاب أحكام الكسب. ٤- كتاب الحلال والحرام. ٥- كتاب آداب الصحبة والمعاشرة مع الخلق. ٦- كتاب العزلة. ٧- كتاب آداب السفر. ٨- كتاب السماع والوجد. ٩- كتاب الأمر بالمعروف. ١٠- كتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة.

وأما ربع المهلكات، فيشتمل على عشرة كتب:

١- كتاب سر عجائب القلب. ٢- كتاب رياضة النفس. ٣- كتاب آفة الشهوتين، البطن والفرج. ٤- كتاب آفات اللسان. ٥- كتاب آفة الغضب والحقد والحسد. ٦-كتاب ذم الدنيا. ٧- كتاب ذم المال والبخل. ٨- كتاب ذم الجاه والرياء. ٩- كتاب ذم الكبر والعجب. ١٠- كتاب الغرور.

وأما ربع المنجيات، فيشتمل على عشرة كتب:

١- كتاب التوبة. ٢- كتاب الصبر والشكر. ٣- كتب الخوف والرجاء. ٤- كتاب الفقر والزهد. ٥- كتاب التوحيد والتوكل. ٦- كتاب المحبة والشوق والرضا. ٧-كتاب النية والصدق والإخلاص. ٨- كتاب المراقبة والمحاسبة. ٩- كتاب التفكر. ١٠- كتاب ذكر الموت.

فنذكر في كل كتاب خفايا آدابه، ودقائق سننه، وأسرار معانيه، والله الموفق.

ربع العبادات

كتاب العلم

وفيه سبعة أبواب:

الباب الأول
في فضيلة العلم والتعلم والتعليم

- **فضيلة العلم:**

أما فضل العلم، فقد دل عليه القرآن والسنة والمعقول.

أما القرآن: فقوله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ ﴾ [آل عمران:١٨]. فبدأ بنفسه، ثم ثنَّى بملائكته، ثم ثلث بأهل العلم، وناهيك بهذا شرفا. وقال تعالى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة: ١١].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «**للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعمائة درجة، ما بين الدرجتين مسيرة خمسمائة عام**»(١). وقال تعالى: ﴿ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر:٩]، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر:٢٨]، وقال عز وجل: ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٣].

وأما السنة: فأخبرنا هبة الله بن محمد بن الحصين، قال: أخبرنا الحسن بن علي بن المذهب، قال: أخبرنا أحمد بن جعفر، قال: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال: حدثني أبي، قال: حدثنا كثير بن هشام، قال: حدثنا جعفر، قال: حدثنا يزيد بن الأصم، قال: سمعت معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه روى عن النبي ﷺ أنه قال: «**من يُرِد الله به خيرًا يفقهه في الدين**» أخرجاه في الصحيحين(٢).

أخبرنا ابن الحصين، قال: أخبرنا ابن المذهب، قال: أخبرنا أحمد بن جعفر، قال: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال: حدثني أبي، قال: حدثنا هيثم بن خارجة، قال: حدثنا رشدين بن سعد، عن عبد الله بن الوليد، عن أبي حفص، حدثه أنه سمع أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «**إن مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء، يُهتدى بها**

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ وقد أخرج نحوه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٧٧) من طريق عبيد بن عمير عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: « **فضل المؤمن العالم على المؤمن العابد سبعون درجة** » وعبيد بن عمير مجهول، وانظر: ضعيف الجامع (٣٩٧٢).

(٢) مسلم (١٠٣٧) من طريق كثير بن هشام به، وأخرجه البخاري (٧١) من طريق الزهري عن حميد بن عبد الرحمن عن معاوية به.

في ظلمات البر والبحر، فإذا انطمست النجوم أوشك أن تضل الهداة»[(١)]. أبو حفص اسمه: عمر بن مهاجر الأنصاري.

أخبرنا عبد الملك بن أبي القاسم الكروخي، قال: حدثنا أبو بكر الغورجي وأبو عامر الأزدي، قالا: أخبرنا الجراحي، قال: أخبرنا المحبوبي، قال: حدثنا الترمذي، قال: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، قال: حدثنا سلمة بن رجاء، قال: حدثنا الوليد بن جميل، قال: حدثنا القاسم أبو عبد الرحمن، عن أبي أمامة ﷺ، قال: ذكر لرسول الله ﷺ رجلان، أحدهما عابد، والآخر عالم، فقال رسول الله ﷺ: «**فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم**»[(٢)].

وقد روى النعمان بن بشير ﷺ، عن النبي ﷺ، أنه قال: «**يوزن مداد العلماء مع دم الشهداء، فيرجح مداد العلماء على دم الشهداء**»[(٣)].

وروى أبو الدرداء ﷺ عن النبي ﷺ، أنه قال: «**فضل العالم على العابد، كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورِّثوا دينارًا ولا درهمًا، إنما ورَّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر**»[(٤)].

وروى أبو بكر الصديق ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**من تعلم بابًا من العلم فعمل به، أو علَّمه جاهلًا يعمل به، كان خيرًا له من أن لو كانت الدنيا ما بين المشرق والمغرب له ذهبة حمراء، فأنفقها في سبيل الله ﷻ**»[(٥)].

---

(١) ضعيف جدًّا: أحمد (١٢٦٠٠)، والآجري في أخلاق العلماء (١٥)، والخطيب في الفقيه والمتفقه (٧٥٦)، والرامهرمزي في أمثال الحديث (٥٧) من طريق رشدين بن سعد به، ورشدين ضعيف، هو عبد الله بن الوليد، انظر: الضعيفة (٥٨٧٤).

(٢) الترمذي (٢٦٨٥) من طريق سلمة بن رجاء به، وسلمة صدوق يغرب كما في التقريب، وأخرجه الدارمي (٢٨٩) من طريق يزيد بن هارون، حدثنا الوليد بن جميل الكناني، حدثنا مكحول مرسلًا، وهو أشبه، وله شواهد لا تخلو من مقال صححه بها الألباني، انظر: صحيح الجامع (٤٢١٣)، وصحيح الترغيب والترهيب (٨١).

(٣) موضوع: أبو نعيم في أخبار أصبهان (٢٤٣٩) من حديث عبد الله بن عمرو، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١٢٧) من حديث أبي الدرداء، وابن الجوزي في العلل المتناهية (٨٥) من حديث ابن عمرو (٨٦) من حديث النعمان وقال: لا يصح، وأورده السخاوي في المقاصد الحسنة (٩٥٩)، وملا علي القاري في الأسرار المرفوعة (١/ ٣١٣)، والذهبي في ميزان الاعتدال (٣/ ١٧) وقال: متنه موضوع، والشوكاني في الفوائد المجموعة (٢٨٧)، والألباني في الضعيفة (٤٨٣٢).

(٤) صحيح: الترمذي (٢٦٨٢)، وأبو داود (٣٦٤١)، وابن ماجه (٢٢٣)، وأحمد (٢١٧١٥) من طريق عاصم ابن رجاء بن حيوة، عن داود بن جميل، عن كثير بن قيس عن أبي الدرداء به، وهذا إسناد ضعيف لضعف كثير بن قيس، وله شواهد لا تخلو من مقال حسنه بها الألباني في صحيح الترغيب (٧٠).

(٥) لم أجده من حديث أبي بكر ولا بهذا اللفظ. وقد روى ابن عدي من حديث أبي هريرة «**من تعلم بابًا من العلم ليُعلم الناس أعطي ثواب سبعين صدِّيقًا**» قال الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (٥٥): موضوع. وروى الخطيب في تاريخ بغداد (١٩٢١) من حديث ابن عباس بلفظ «**من تعلم بابًا من العلم عمل به أو لم يعمل كان أفضل من صلاة ألف ركعة فإن هو عمل به أو علمه كان له ثوابه وثواب من يعمل**
=

ذكر الآثار في فضل العلم

أخبرنا عبد الله بن علي المقرئ، قال: أخبرنا حمزة بن محمد الزبيرى، قال: أخبرنا عبد الرحمن بن عبيد الله، أبو القاسم الحرفي، قال: حدثنا حبيب بن الحسن بن داود القزاز، قال: حدثنا موسى بن إسحاق الأنصاري، قال: حدثنا ضرار بن صرد، قال: حدثنا عاصم ابن حميد، عن أبي حمزة الثمالى، عن عبد الرحمن بن جندب، عن كميل بن زياد النخعي، قال: أخذ علي بن أبي طالب ﷺ بيدي، فأخرجني إلى ناحية الجبان، فلما أصحرنا جلس، ثم تنفس الصعداء، ثم قال: يا كميل بن زياد، القلوب أوعية، فخيرها أوعاها، فاحفظ عني ما أقول لك:

الناس ثلاثة: عالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق.

العلم خير من المال، العلم يحرسك، وأنت تحرس المال، المال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق، وصنيعة المال تزول بزواله، ومحبة العالم دين يدان به، تكسبه الطاعة في حياته، وجميل الأحدوثة بعد موته، والعلم حاكم، والمال محكوم عليه.

مات خزان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة، هاه. إن ها هنا – وأشار بيده إلى صدره – علمًا، لو أصبت له حملة، بلى أصبته لقنا غير مأمون عليه، يستعمل آلة الدين للدنيا، يستظهر بنعم الله على عباده، وبحججه على كتابه، أو منقادا لأهل الحق، لا بصيرة له في أحنائه، ينقدح الشك في قلبه بأول عارض من شبهة، لا ذا ولا ذاك، فمنهوم باللذات، سلس القياد للشهوات، أو مغرى بجمع الأموال والادخار، ليسا من رعاة الدين في شيء، أقرب شبها بهما الأنعام السائمة، كذلك يموت العلم بموت حامليه.

اللهم بلى! لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة، إما ظاهرًا مشهورًا، أو خائفًا مغمورًا، لئلا تبطل حجج الله وبيناته، وكم ذا... وأين أولئك؟

أولئك والله الأقلون عددًا، الأعظمون عند الله قدرًا، بهم يحفظ الله تعالى حججه، حتى يؤدوها إلى نظرائهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر، وباشروا روح اليقين، فاستلانوا ما استوعر منه المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى.

يا كميل، أولئك خلفاء الله في أرضه، والدعاة إلى دينه، هاه هاه، شوقًا إلى رؤيتهم،

= به إلى يوم القيامة»، وكذا أورده ابن عراق في تنزيه الشريعة (٣٧١) وقال فيه محمد بن يزيد اليشكري، وأورده الألباني في الضعيفة (٦٨٠٣) وقال: موضوع، وأورد الخطيب في الفقيه والمتفقه (١/ ١٦) نحوه من كلام الحسن البصري، وهو أشبه.

وأستغفر الله لي ولك، إذا شئت فقم[(١)].

وقال علي ﷺ: إن العالم أعظم أجرًا من الصائم القائم، الغازي في سبيل الله. وإذا مات العالم انثلمت في الإسلام ثُلْمَة، لا يسدها شيء إلى يوم القيامة[(٢)].

وأخبرنا محمد بن عبد الباقي البزار، قال: أخبرنا أبو محمد الجوهري، قال: أخبرنا علي ابن محمد بن لؤلؤ، قال: أخبرنا حمزة بن محمد الكاتب، قال: حدثنا نعيم بن حماد، قال: أخبرنا خارجة بن مصعب، عن داود بن أبي هند، عن الشعبي، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: والله لعالم واحد أشد على الشيطان من ألف عابد[(٣)]. وقد روى مرفوعًا، ولا يصح رفعه[(٤)].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: تذاكر العلم بعض ليلة أحب إلى من إحيائها[(٥)].

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩] قال: أولو العلم.

وفي رواية عنه: هم الفقهاء والعلماء[(٦)].

وكذلك روى أبو زرعة عن الإمام أحمد رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩] قال: هم أهل العلم، ألا تراه سبحانه يقول: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾؟ [النساء:٨٣].

وقال سعيد بن جبير: الربانيون: الفقهاء العلماء[(٧)].

---

(١) ضعيف: أبو نعيم في الحلية (١/ ٧٩)، ومن طريقه الخطيب في الفقيه والمتفقه (١/ ٧٣)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٥٠/ ٢٥١)، وانظر تذكرة الحفاظ (١/ ١٢).

(٢) الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (١/ ٨٨) بإسناد ضعيف، وانظر: الإلماع (٤٨) للقاضي عياض، والجليس الصالح (٣٩٥) للمعافى بن زكريا، وروى الدارمي (٣٢٤)، وأحمد في الزهد (ص٣٢١)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٦٧٧) عن الحسن قال: «كانوا يقولون موت العالم ثلمة في الإسلام لا يسدها شيء ما اختلف الليل والنهار». ورواه البيهقي في الشعب (١٦٧٣) من طريق الحسن قال: قال ابن مسعود ... فذكره.

(٣) أبو نعيم في الحلية (٩/ ٥٧)، وفي أخبار أصبهان (١/ ٣٢٢) من طريق أبي حرة عن سليمان الدمشقي، عن ابن عباس موقوفًا، وقد روي مرفوعًا، ولا يصح كما ذكره المصنف، انظر الحاشية التالية.

(٤) الترمذي (٢٦٨١)، وابن ماجه (٢٢٢)، والطبراني في الكبير (١٠٨٨٩) من حديث ابن عباس مرفوعًا بإسناد واهٍ. ورواه الدارقطني (٢٧١١)، والطبراني في الأوسط (٦٢٧٤)، والقضاعي في مسند الشهاب (١٩٧) من حديث أبي هريرة. وأورده الألباني في الضعيفة (٢٦٥١)، وفي ضعيف الجامع (٣٩٨٧) وقال: موضوع.

(٥) عبد الرزاق (٢٠٤٩٦)، والدارمي (٢٦٤)، (٦١٤) من طريق قتادة عن ابن عباس به، وذكره ابن عبد البر في جامع بيان العلم (٨٩).

(٦) ابن أبي حاتم في التفسير (٥٥٧١)، وسعيد بن منصور في التفسير (٦٢٣)، والآجري في أخلاق العلماء (٦).

(٧) انظر الحاشية التالية.

وقال مجاهد: الربانيون: الفقهاء المعلمون[١].

وقال في قوله سبحانه: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩] قال: الفقه والعلم[٢].

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ [الإسراء:٧١] قال: بعلمائهم[٣].

وقال زيد بن أسلم في قوله سبحانه: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾[الأنعام:٨٣ ويوسف:٧٦] قال: بالعلم[٤].

وقال الزبير بن بكار: كتب إلى أبي: عليك بالعلم، فإن افتقرت كان لك مالًا، وإن استغنيت كان جمالًا[٥].

وقال عبيد الله ابن عائشة: إذا استرذل الله عبدًا حظر عليه العلم[٦].

وكان بعض الحكماء يقول: ليت شعري، أي شيء أدرك من فاته العلم، وأي شيء فات من أدرك العلم؟!.

وقد روينا عن ابن المبارك أنه سئل: من الناس؟ فقال: العلماء[٧]. وإنما أخرج الجهال من الناس؛ لأن الخاصية التي تميز بها الآدمي العلم، فإنه لم يفضل بقوته، فإن الجمل أقوى منه، ولا بشجاعته، فإن الأسد أشجع منه، ولا بكثرة أكله، فإن بطن البعير أوسع من بطنه، ولا بكثرة سفاده، فإن العصفور أقوى على السفاد منه، وإنما خصيصته التي بها فضل: العلم، وبتلك العلة أسجد الله ﷻ الملائكة لآدم، ومن أعجب فضائل العلم أنه يفرح من نسب إليه وإن لم يكن من أهله، ويحزن من سلب عنه وإن كان جاهلًا.

---

(١) عبد الرزاق في التفسير (٦٨٤)، والطبري في جامع البيان (٦٦٥٨) من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد ولفظه: «الفقهاء العلماء»، أما قوله: الفقهاء المعلمون فهو مروي عن ابن عباس، أخرجه ابن أبي حاتم (٣٧٤٥) من طريق عطاء، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس.

(٢) السنة لعبد الله بن أحمد (٧٣٣)، والخطيب في الفقيه والمتفقه (١٠٦).

(٣) ما ورد عن قتادة في تفسير قوله تعالى: ﴿بِإِمَامِهِمْ﴾ أنه قال: بنبيهم كما أخرجه الطبري في جامع البيان (٢٠٥٠٧).

(٤) وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٧١٠).

(٥) أخرجه أبو نعيم الأصبهاني في حديثه عن أبي علي الصواف (٦).

(٦) لم أقف عليه من قول عبيد الله ابن عائشة، وأخرجه القضاعي في مسند الشهاب (٧٣٩) وغيره من حديث أبي هريرة مرفوعًا، وهو موضوع لا يثبت.

(٧) الحلية (٨/ ١٦٧)، والرامهرمزي في المحدث الفاصل (٨٥).

الشواهد العقلية

إذا أردت أن تعلم فضيلة الشيء، فافهم ما الفضيلة، فإنك لو أردت أن تعلم هل زيد فقيه أم لا؟ لم تقدر على ذلك حتى تعرف ما الفقه.

والفضيلة مأخوذة من الفضل، وهو الزيادة، فإذا اشترك شيئان في أمر، وزاد أحدهما في ذلك الأمر، قيل: له فضيلة، غير أن تلك الزيادة إنما تكون فيما هو كمال ذلك الشيء، كما يقال: الفرس أفضل من الحمار. بمعني: أنه يشاركه في قوة الحمل، ويزيد عليه في الكر والفر، وحسن الصورة، ولو زاد بعض الناس بزيادة أصبع، كانت تلك الزيادة نقصًا في المعنى؛ لأنها ليست من الكمال في شيء، فإذا عرفت أن العلم فضيلة؛ لأنه زيادة يتمم المعنى، وعلى مقدار التزيد منه تزيد الفضيلة.

واعلم أن الشيء النفيس المرغوب فيه ينقسم إلى ما يطلب لغيره، كالدراهم، وإلى ما يطلب لذاته، كالسعادة في الآخرة، وإلى ما يطلب لذاته ولغيره، كسلامة البدن، فإنها تطلب لنفسها من حيث إنها سلامة من الألم، ومطلوبة لغيرها من جهة التوصل بها إلى المآرب.

فإذا نظرت إلى العلم رأيته مطلوبا لذاته، ووسيلة إلى تحصيل المنافع في الدنيا والآخرة، وذريعة إلى القرب من الله ﷻ، فلا يتوصل إليه إلا به، وإذا كان العلم سببًا لذلك دل على أنه أفضل الأشياء.

ومن وجه آخر؛ وهو أنك إذا أردت أن تعرف فضل الشيء، فانظُر في ثمرته، ومعلوم أن ثمرة العلم في الدنيا العز والوقار، ونفوذ الحكم على الملوك، ونيل الاحترام من الخلق، حتى إن أغبياء الترك، وأجلاف العرب، يعظمون أشياخهم، لاختصاصهم بمزيد علم مستفاد من التجربة، بل البهيمة بطبعها توقر الإنسان، لشعورها بتميزه بكمال مجاوز لدرجتها.

وأما ثمرته في الآخرة، فالقرب من الله ﷻ، ونيل السعادة التامة الأبدية، ويوضح ما ذكرنا؛ أن مقاصد الخلق مجموعة في الدين والدنيا، ولا ينتظم الدين إلا بانتظام الدنيا؛ لأنها مزرعة الآخرة، ولا ينتظم أمر الدنيا إلا بصناعة الآدميين، **وصناعاتهم على ثلاثة أقسام:**

أحدها: أصول لا قوام للعالم بدونها، وهي أربعة:

١- الزراعة، وهي للمطعم، ٢- والحياكة، للملبس، ٣- والبناء، للسكنى، ٤- والسياسة، للتأليف والاجتماع، والتعاون على أسباب المعاش.

والقسم الثاني: ما هو كالخادم لهذه الأصول، كالحدادة، فإنها تخدم الزراعة، والغزل والحلج، فإنه كالخادم للحياكة.

والقسم الثالث: ما هو متمم للأصول ومزين لها، كالطحن والخبز للزراعة، والقصارة والخياطة للحياكة، وذلك بالإضافة إلى قوام أمر العالم الأرضي، مثل أجزاء الشخص

بالإضافة إليه، فإنها على ثلاثة أضرب:

١- أما الأصول: فكالقلب والكبد والدماغ.

٢- وأما الخادم لها: فكالعروق والمعدة والأعصاب ونحوها.

٣- وأما المكمل والمزين: فكالأظفار والأصابع والحاجبين.

وأشرف هذه الصناعات أصولها، وأشرف أصولها السياسة؛ لأنها سبب لإصلاح الأمور واستقامتها، ولذلك تستدعي السياسة من كمال القائم بها ما لا تستدعي سائر الصناعات، ولذلك يستخدم السائس سائر الصناع، فقد بان فضل السائس على غيره لمزية العلم بالتصرف، وشرف الصناعة يعرف إما بالآلة التي يتوصل بها إلى تحصيلها، كفضل العلوم العقلية على اللغوية، من جهة أن الحكمة تدرك بالعقل، واللغة بالسمع، والعقل أشرف من السمع، وإما بالنظر إلى عموم النفع، كفضل الزراعة على الصياغة، وإما بملاحظة المحل الذي فيه التصرف، كفضل الصياغة على الدباغة؛ لأن محل أحدهما الذهب، ومحل الآخر جلد الميتة، وهذه الأمور قد اجتمعت في العلم.

أما الآلة، فإن العلم يدرك بصفاء الذكاء، وكمال العقل، وجودة الفهم.

وأما عموم النفع، فإن نفع العلم أعم، وثمرته سعادة الآخرة، وأما المحل، فإن أشرف الموجودات على ظهر الأرض جنس الإنس، وأشرف جزء من الإنسان قلبه، والمعلم مشتغل بتطهيره وتكميله، فهو كالخليفة عن الله تعالى في تثقيف عبده، وإصلاحه لخدمته، وهو بذلك متعبد لله ﷻ، وكيف لا، وهو واسطة بين الرب والعبد؟!

فصل

الاشتغال بالعلم خير من الاشتغال بالنافلة

وقد يقع لبعض من يقل فهمه أن العمل أفضل من العلم، ويشير بذلك إلى النفل بالصلاة والصوم، ويحتج بأن المراد من العلم العمل، وهذا غلط؛ لأن العلم يحصل بسعي القلب، وإنضاء راحلة الفكر، فكيف لا يكون أفضل من أعمال الجوارح الظاهرة، وهو عمل أشرف الجوارح الباطنة؟! فالتعلم والتعليم أفضل من كل نافلة. قال مطرف بن عبد الله: فضل العلم خير من فضل العبادة[1].

قلت: وكم من عابد قل علمه، فحركه الشيطان إلى التخاشع وإقامة الناموس، فربما

---

(١) أحمد في الزهد (ص٢٩٤)، والبيهقي في الشعب (١٦٦٢)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (٧١٠) كلهم من قول مطرف بإسناد صحيح. وأخرجه مرفوعًا الحاكم في المستدرك (١/ ٩٢) من حديث سعد بن أبي وقاص، و(١/ ٩٣) من حديث حذيفة بن اليمان. وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» وأقره الذهبي. وحسنه المنذري في الترغيب (١/ ٩٣)، وصححه الألباني لغيره في صحيح الترغيب (٦٨)، (١٧٤٠).